

الإنسانية.. يا معشر الأطباء

سالي ساتيل

مركز اميريكان انتربرايز

17 سبتمبر 2010

Physician, Humanize Thyself

By Sally Satel

American Enterprise Institute (AEI)

ترجمة: علي الحارس (alharis.a@gmail.com)

- خبيرة في مركز اميريكان انتربرايز (AEI).
- طبيبة نفسانية في العاصمة واشنطن (منذ 1997).
- أستاذة محاضرة في كلية الطب. جامعة يال (منذ 1995).
- عضو المجلس الاستشاري الوطني لمركز خدمات الصحة النفسية (2002-2005).
- عضو هيئة مراجعة تقرير اتهام أعضاء الكلية الجوية الأمريكية بإساءة السلوك الجنسي (2003).
- عضو طاقم لجنة قدامى المقاتلين في مجلس الشيوخ (1996-1997).



سالي ساتيل

«كن كما لو كنت الطبيب الذي ترغب بأن تحظى به لو كنت أنت المريض». بهذه الكلمات رحب الدكتور آرنولد غولد بطلابه الجدد في كلية الأطباء والجراحين التابعة لجامعة كولومبيا. وبينما كانت عيون أهالي الطلبة تراقب المشهد، جلس 168 طالبا وطالبة متلهفين في مدرج الكلية، وكل منهم يحمل معطفه الأبيض على كتفه منتظرا إذاعة اسمه كي يذهب إلى مقدمة المدرج ويتم «إكساؤه» تلك الحلة البيضاء بيد طبيب أكبر منه سنا.

كان ذلك هو الاحتفال السنوي الثامن عشر للمعطف الأبيض في جامعة كولومبيا. والدكتور غولد، وهو طبيب عطوف مختص بطب أعصاب الأطفال، يعتبر المسؤول عن الشعبية التي حظي بها هذا الاحتفال منذ سنوات، وذلك، بحسب رأيه، لأن «طلاب الطب أصبحوا مولعين بالتكنولوجيا وبدؤوا يفقدون الجوانب المهمة للعلاقات الإنسانية مع المرضى». وهو يسمي هذه المعاطف باسم «معاطف الرحمة».

الإنسانية.. يا معشر الأطباء

لقد طلبت حضور مناسبة «الإكساء» هذه لأن جيلي لم يكن يحتفل بمثل هذه المناسبة في أوائل الثمانينيات. وإنما أتذكر أن سكرتيرة عميد الكلية أمرتنا. وعلى نحو غير احتفالي تماما. بأن نذهب إلى قسم الغسيل في المستشفى ونأتي بمعطف يناسب مقياس كل منا.

في هذا العام. عقدت معظم كليات الطب الأمريكية (133 كلية) احتفالات إكساء المعطف الأبيض. وهي احتفالات تقع في جوهر حركة تعرف تحت عنوان (الإنسانية في الطب). اكتسبت هذه الحركة زخما في بداية الثمانينيات عندما أدت إجراءات اقتطاع النفقات التي فرضتها شركات الضمان الصحي إلى الحد من الحرية في العلاقة ما بين الطبيب والمريض. وانزعج الأطباء من الضوابط التي تحدد مدة إقامة المريض في المستشفى وعدد زيارات المريض غير المقيم. وتفاقم هذا التوجه في التسعينيات بسبب ازدهار موجة (الرعاية المدبرة).

ويرى مؤيدو (الإنسانية) أن هذه التغيرات في الثقافة الطبية تسربت إلى مستوى الطلبة. وأدت إلى عملية تشويه مستمرة لأرائهم خلال تدرجهم في سنوات الدراسة. وبالفعل. فإن الكثير من الدراسات تشير إلى أن العقد السابق شهد ارتفاعا في الواقعية الشديدة وتناقصا في المثالية لدى طلبة الطب أثناء التعلم. ولكن هذه المعلومات ليست جديدة. ففي بحث نشرته مجلة الأخلاقيات الطبية في العام 1955 ورد أن مواقف الطلبة من المرضى أصبحت كذلك مع إحساس بالفوقية. ولا شك في أن الابتعاد عن معاناة المريض عبر الهزل وإطلاق الكنايات اللغوية الخاصة وعقلية التفوق الانعزالية ترجع في القدم بعيدا إلى أوان تأسيس المستشفيات نفسها. وبالرغم من ذلك. فإن الفتوحات في التكنولوجيا الطبية تحدث كل يوم تقريبا. وأدى الاعتماد الكبير على الفحوص التشخيصية إلى أن تحل. جزئيا. محل الآليات الأكثر حميمية المتمثلة في معرفة التاريخ الصحي للمريض بدقة والفحص الجسدي.

الإنسانية.. يا معشر الأطباء

إن رعاية «التوجه الإنساني» مشروع كبير. وقد انبرى عدد من كليات الطب في عدد من الجامعات. كجامعة بنسلفانيا وجامعة ولاية أوهايو وجامعة الطب البشري وطب الأسنان في نيو جيرسي. إلى تخصيص زمالات لمساعدتي العمداء وتأسيس مراكز تعنى بـ «المهنية والإنسانية».

وفي إطار هذا المسعى، خصصت كلية (ماونت سايناي) للطب البشري وغيرها عددا من مقاعدها الدراسية للطلاب الذين تخصصوا في المواد الأدبية (كاللغة الانكليزية، والتاريخ، والفلسفة) ولم يدرسوا الفيزياء أو الكيمياء العضوية. كما تخلوا عن المطالبة بامتحان (MCAT) الذي يُطلب من المتقدمين لكليات الطب تقليديا. وفي هذا يقول الدكتور ديفيد مولر، أحد المشاركين في دراسة استغرقت خمس سنوات ونشرت مؤخرا حول برنامج كلية (ماونت سايناي): «الخلفية المكونة من اختصاصات أدبية من شأنها أن تزود هؤلاء الطلبة بمهارات تواصل متقدمة وطريقة أفضل في التعامل مع المرضى الراقدين في المستشفيات».

ولتوسيع التعاطف مع مرضى المستشفيات، يعتمد بعض التدريسيين في كليات الطب إلى الطلب من طلبتهم أن يتخيلوا حياة الجثة التي يتعاملون معها وأن يكتبوا عن مشاعرهم تجاه من كانت روحه تسري في أوصالها. إن تدوين المرء لخواطره حول الجثة التي يعمل عليها يصيبني بالصدمة. لكنني أرحب بالفكرة الأساسية من وراء ذلك، ففي نهاية الأمر، ينبغي أن يكون احترام المريض باعتباره (فردا فريدا بذاته) في جوهر تكوين شخصية الطبيب. وكما قال الطبيب المرموق السير ويليام أوزلر للطلبة في خطاب ألقاه في كلية ألبراني الطبية عام 1899: «اهتموا خصوصا بالمرضى كأفراد أكثر من اهتمامكم بالعلامات الخاصة للمرض».

لكن السؤال الذي يثير الجدل هاهنا: هل يمكن تعليم التعاطف؟ وبالأخص: هل تقدم احتفالات المعاطف البيضاء وسيلة جيدة لإعلاء شأن هذه الفضيلة؟

الإنسانية.. يا معشر الأطباء

لقد سلط جودا غولديبرغ، وهو طبيب شاب في مستشفى تشيلتون ميموريال في نيو جيرسي، الضوء على مفارقة مثيرة للاهتمام، حيث سأل كيف أن للمعطف الأبيض أن يجبر الطبيب إلى تجربة ذاتية مع المرضى، بينما تفرض عليه أعراف المهنة أن يعزل نفسه ويميزها عن لا يماثلونه في المهنة. وهو يقول: «إذا سلمنا بأن التعاطف يمكن تعليمه بأداء مجموعة من المراسيم، فعندها يكون رداء المرضى، وهو علامة شائعة للضعف البشري، أكثر خدمة للهدف من معطف أبيض يباع بين الطبيب والمريض».

أما بالنسبة للطلبة، فلا تبدو عليهم علامات واضحة تدل على أن التعاطف العميق أمر يمكن تلقينه، وأنا، شخصيا، أشك في ذلك، وفي نهاية الأمر، يبدو أن معظم الأطباء الإنسانيين، من أمثال الدكتور غولد، يتحلون بالإنسانية قبل أن يصبحوا أطباء في الأصل. ومع ذلك، فإن إتقان المعارف الأساسية للأبعاد الإنسانية في رعاية المريض، كالاهتمام المحترم برعاية المريض والالتزام الفريد بها، يمكن، بل يجب، ترسيخه عبر التمرين؛ وهذا لا يحدث في الصفوف الدراسية طبعاً، بل يقع مكانه المثالي في ردهات المستشفيات والعيادات تحت مراقبة يقظة من أطباء محنكين.

في ذلك اليوم كنت أراقب هؤلاء الطلبة الجدد وأنا مدركة بأنهم سيخسرون براءتهم سريعاً وبشكل طبيعي، ولكنهم سيتعرضون إلى مشقة إضافية لأنهم سيواجهون مناخاً سياسياً لا يخدم تحسين العلاقة ما بين الطبيب والمريض؛ فقانون الرعاية الصحية الجديد، مثلاً، يطلب من الطبيب قضاء ساعات أكثر في كتابة التقارير والملاحظات لتبرير قائمة أجوره، مما يستنزف وقته الذي يستفيد منه المريض. فالرعاية الصحية الجديدة المحكومة بالضوابط، وبحسب صرامة تطبيقها، من شأنها أن تجعل الطبيب يضغط على مريضه للقبول بعلاج معين دون أخذ خياره الشخصي بعين الاعتبار.

إن التلاعب بالجواهر الأزلي للطب (كن إنساناً) بمفاهيم من قبيل «مقاييس الرعاية الصحية» أو «المعيارية»، وهي الشعارات الجديدة لإصلاح نظام الرعاية الصحية، سوف

الإنسانية.. يا معشر الأطباء

يضع عوائق أكثر أمام طلبة الطب ليصبحوا أطباء من النوع الذي يريدون ليحظوا به لو كانوا هم المرضى. ولا بأس أن يبدؤوا بمراسيم للالتزام بما يريدون.